الاستقلال، فقط الاستقلال

بقلم سمير قصير

(جريدة النهار)

طبعاً، كان يمكن المشاهد الذي استفزه نقل "تلفزيون لبنان" وقائع الاحتفال بذكرى الحركة التصحيحية السورية ان ينتقل بسرعة الى اهتمامات اخرى، وخاصة ان تبدلاً ما في المناخ، تصحيح التصحيح ربما، اتاح للتلفزيونات الاخرى التفلت لمرة من موجبات الاخوة والتنسيق. لكن من استطاع تجاوز ردة الفعل الغريزية فبقي متسمراً امام الشاشة العامة لم يُضِع وقته بالضرورة، اذ توافرت له جرعة من الانفعالات لا تقل اثارة عن المسلسلات العاطفية التي تُبث عادة في مثل هذا الوقت من المساء.

والحق ان المشهد لا يمكن الا ان يكون مؤثراً عندما يعرض الحشرجات ما قبل الاخيرة لجماعة في طور الانقراض، كما هي حال "حزب التلازم" في لبنان. للتدقيق، ليست مكونات هذا "الحزب" معرضة للانقراض المادي، وما يتهددها يطاول فقط تماسكها وتشكلها في جبهة متراصة. ولعل البحث عن اسباب لطمأنة النفس وسط هذه الحشرة هو ما يفسر التنادي للاجتماع حول رموز بدت يوماً ما ثابتة، كالاحتفال بهذه المناسبة على هذا الشكل، ولو للمرة الاخيرة.

المرة الاخيرة حقاً؟ يصعب الجزم في هذا الموضوع، كما في كل المواضيع السورية، وكم بالاحرى السورية – اللبنانية. لكن الحظوظ كبيرة ان يكون مثل هذا التكهن صائباً. ليس بالضرورة لان انهاء الوصاية السورية على لبنان سيكون قد انجز قبل مرور اثني عشر شهراً، وان يكن هذا الملف قابلاً للتحرك اسرع بكثير مما يتوقع، وخصوصاً بعدما ثبت انه يستحيل اقفاله بعد الآن، وانما لأن سوريا قد لا تجد نفسها بعد الآن في احتفالات كهذه. فحتى لو افترضنا ان الاصلاح في سوريا لن يقدر على اجتياز عتبة التغيير الديموقراطي الحقيقي، فإن تعزيز مكانة "الحرس الجديد" يفترض، بعد احترام مبدأ اللياقة في السنة الاولى، تظهير مناسبات اخرى اكثر التصاقاً بشعارات المرحلة ورموزها، كما يستدل اصلاً من طغيان صور الخلف بشار الاسد فيما المحتفى به هو السلف حافظ الاسد.

الا ان استحالة المحافظة على الجمود، ان في لبنان او في سوريا او في ما بينهما، لا تعني ان الامور ستذهب في الاتجاه الصحيح بمشيئة عدالة التاريخ المفترضة، ولا حتى باهتداء مفاجئ من القيادة السورية لما يخدم مصلحة البلدين معاً. فثمة مسؤولية لبنانية لا تقل اهمية عن المسؤولية السورية، بل هي مسؤولية مزدوجة.

المسؤولية الاولى، والشرط الاساسي ليتم التغيير، هي في رفع الصوت، وهذا ما حصل اخيراً، وهذا ما يجب ان يستمر حتى لا يعود ممكناً التحايل على ارادة الاستقلال الوطني بحجة حصر مناقشة موضوع الوصاية السورية في مؤسسات السلطة، او بحجة تحصين الموقف الداخلي اللبناني من الاهتزازات.

هنا تقع تحديداً المسؤولية الثانية، وهي مسؤولية ابقاء قضية الوصاية السورية في اطار مفهوم الاستقلال الوطني وحده، ودون ان يرقى شك الى ما يعنيه الاستقلال وما لا يعنيه. ففي مقابل الخطاب الواضح لوليد جنبلاط او سمير فرنجية، ثمة الكثير من اللغط، ولا بد من تبديده.

وما يجب الا يعنيه مطلب الاستقلال هو اولاً التراجع، عند بعض المطالبين بخروج القوات السورية، عن صيغة التوازنات الداخلية التي رسا عليها الطائف. بتعبير اوضح، لا يمكن ان يكون مطلب خروج الجيش السوري قناعاً لرغبة اقلية في العودة الى ما كان يسمى ولو زوراً "الهيمنة المارونية". فوجوب اعادة التوازن الى التركيبة السياسية، اي تطبيق الطائف بعدما جرى الانقلاب عليه، لا يمكن ان يكون، حتى في المخيلة، تمهيداً لانقلاب آخر معاكس على الميثاق الوطني الجديد.

ولكي يتأكد صفاء النيات، يتوجب ربما على الداعين الى انهاء الوصاية السورية ان يتنبهوا اكثر الى بعض المفردات والمفاهيم. فحذار مثلاً تحريك العنصرية اللبنانية "العادية" حيال العمال السوريين. وحذار التلذذ بادعاءات التفوق الحضاري، خصوصاً عندما نكون في بلد صنع بعض مجده الحضاري، اي الثقافي والفني والاقتصادي والمصرفي، سوريون. اكثر من ذلك، قد يكون المطلوب حتى يعلو الصوت ويتسع مداه فلا يعود قابلاً للاسكات، ان يجد المطالبون بالاستقلال وسيلة للتأكيد ان كلامهم عن الاخوة مع سوريا ليس من باب رفع العتب، وان رفض اختزال عروبة لبنان بالعلاقات المميزة الراهنة ليس نبذاً للعروبة، بل هو اقبال عليها.

عند ذلك، وعند ذلك فقط، يكون قد بلغ "حزب الاستقلال" حجماً لا يعود يسمح لـ"حزب التلازم" حتى باحتلال... الشاشة.